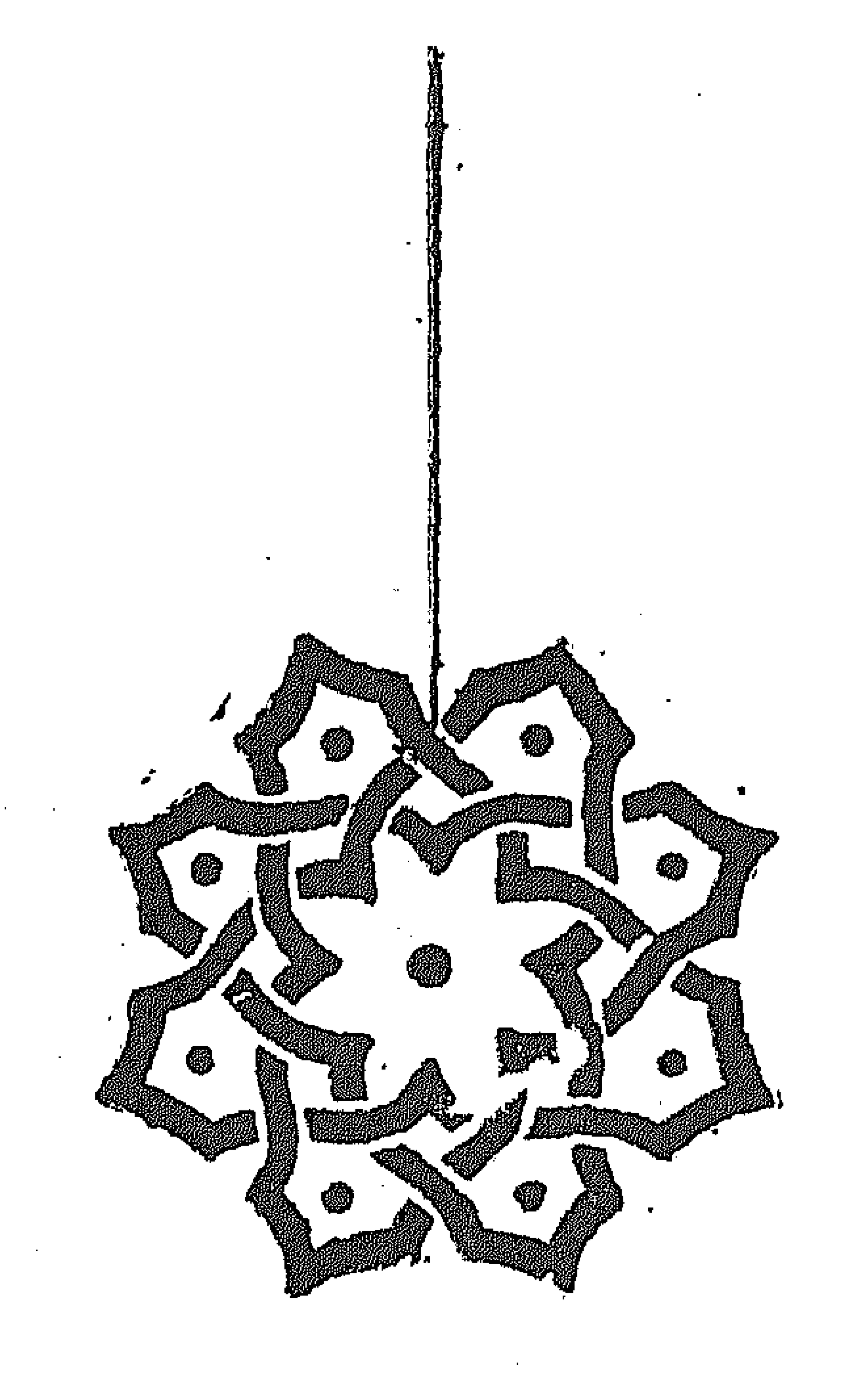
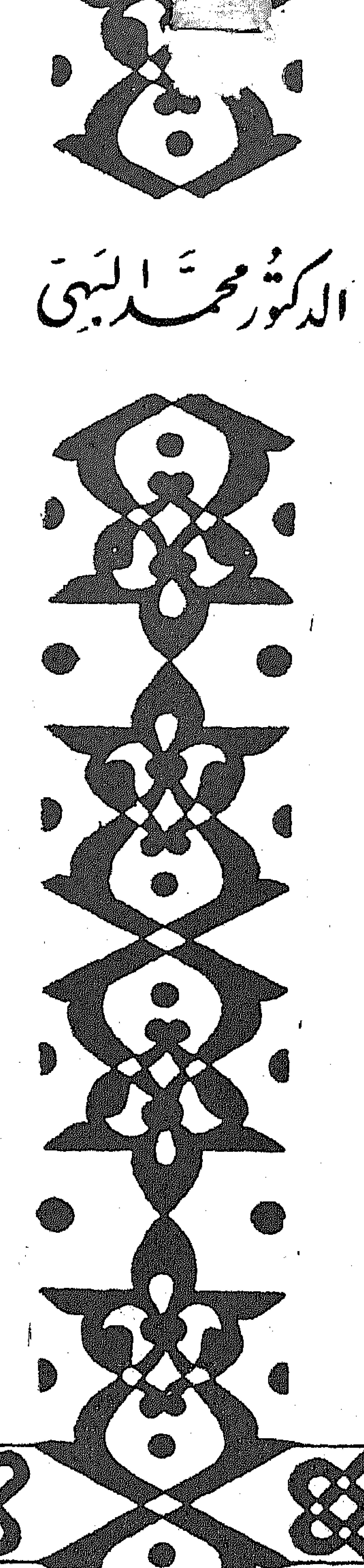




الدكتور محمد البهى

التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

تفسير سورة الأنبياء

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢
أ/د/مصطفى الصاوى الجوينى
الاسكندرية

الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



القرآن في مواجهة المادية

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت ٩٣٧٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سـورة الأنبياء

مقدمة :

تعرض سورة الأنبياء ـ كشأن السور المكية ـ لبعض ادعاءات الوثنيين الجاهليين الماديين ، ضد القرآن ... أو ضد الرسول عليه السلام.. كما تعرض لقضية الشرك ، عن طريق ادعاء الأنداد ، أو اتخاذ الولد ، ووحدة الألوهية . فالله فى وحدته ، والقرآن فى صفاء وحيه من الله ، والرسول فى كمال إنسانيته ، محور التحدى والادعاءت الباطلة التى يثيرها ويكرر إثارتها أولئكم المكيون الجاهلون فيما مضى ـ والماديون اليوم كذلك ـ ويرد عليها القرآن : إما عقب ذكره للادعاء مباشرة ، أو فى نفس السورة التى جاء بها هذا الادعاء ، بعد فاصل من الآيات .

تعرض هذه السورة هنا :

استبعاد هؤلاء الوثنيين الماديين لأن يكون الرسول بشراً ، وليس ملكاً . وهذا الاستبعاد منهم يتكرر فى سور مكية عديدة ، ويكون رد القرآن عليه فى سور مختلفة كذلك .

فالسورة تعرض هذا الاستبعاد فى قول الله تعالى : « **لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشر مثلكم ؟ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ؟** » الآية : ٣ .

ويصف هؤلاء القرآن بأنه أخلاط من الأحلام .. وأنه افتراء .. وأنه خيال شعر ، بعد أن وصفوه فى الآية السابقة بأنه : سحر .

« **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر ، إن كنتم لا تعلمون .**

وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين .

ثم صدقناهم الوعد ، فأنجيناهم ومن نشاء ، وأهلكنا المسرفين »
الآيات : ٧ — ٩

كما ترد على ما وصفوا به القرآن من صفات باطلة بما جاء فى السورة فى قوله تعالى :

« **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم** (أى فيه موعظتكم بالوعد . وليس سحراً ، ولا شعراً ، ولا أضغاث أحلام) **أفلا تعقلون** » ؟ الآية : ١٠

ثم تأتى باستشهادات من التاريخ والأحداث الماضية ، فى الآيات من العاشرة إلى العشرين .

***

وتعرض لقضية وحدة الألوهية ، وادعاءات الوثنيين الماديين فى أن لله أنداداً ، أو فى أن لله ولداً . فتقول :

« **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون** » ؟ **الآية** : ٢١ .

وترد على الشرك عامة — سواء بادعاء الأنداد ، أو باتخاذ الله الملائكة بنات له — بواقع العالم ، وبطبائع الموجودات . فمن واقع العالم جاء فى قوله تعالى :

« **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ،**

فسبحان الله رب العرش عما يصفون .

لايسئل عما يفعل ، وهم يسئلون .

أم اتخذوا من دونه آلهة ؟

قل : هاتوا برهانكم !

هذا ذكر (القرآن) من معى ، وذكر من قبلى (التوراة ، والإنجيل) بل أكثرهم لا يعلمون الحق ، فهم معرضون .

وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا ، فاعبدون ! .

وقالوا اتخذ الرحمن ولداً .

سبحانه ، بل عباد مكرمون (وهم الملائكة). لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم ، وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجرى الظالمين » .
الآيات : من ٢٢ — ٢٩ .

ومن طبائع الموجودات جاء الاستشهاد فى قوله تعالى :

« أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى .

أفلا يؤمنون » . الآية : ٣٠ .

إلى قوله تعالى : «كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » الآية : ٣٥ .

***

وتعرض أيضاً لاستهزائهم بشخص الرسول عليه السلام ، كما تعرض لرد القرآن على هذا الاستهزاء ، بما وقع للرسل والأنبياء السابقين ، ويمثل ظاهرة بشرية عامة تلازم كل مجتمع تهزه دعوة التحول من المادية والجاهلية إلى الروحية الإنسانية .

تقول فى التعبير عن الاستهزاء :

« **وإذا رآك الذين كفروا ، إن يتخذونك إلا هزواً ، أهذا الذى يذكر آلهتكم ، وهم بذكر الرحمن هم كافرون ؟** » الآية : ٣٦ .

وترد على استهزائهم هذا بوجوب عذابهم . ولكن ليس على الفور ، لوعد من الله بذلك :

« **خلق الإنسان من عجل .**

سأوريكم آياتى فلا تستعجلون . ويقولون : متى هذا الوعد إن إن كنتم صادقين » . الآيتان : ٣٧ ، ٣٨ .

إلى قوله تعالى : « **قل إنما أنذركم بالوحى ، ولا يسمع الصم الدعاء، إذا ما ينذرون** » الآية : ٤٥ .

ولكى تؤكد السورة عقاب هؤلاء المستهزئين جاء قوله تعالى لاطمئنان الرسول عليه السلام :

« **ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم، ما كانوا به يستهزئون** » الآية : ٤١ .

أما الرسل والأنبياء الذين تعرضوا للاستهزاء وانتقام الله من المستهزئين بهم فتذكر السورة : موسى ، وهارون ، وإبراهيم، ولوطاً، ونوحاً ، وداوود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل ، وإدريس ، وذا الكفل، وذا النون ، وزكريا، وعيسى ابن مريم ، فى جملة من الآيات إلى قوله تعالى : « **إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون** » الآيات من ٤٨ ــ ٩٢ .

***

ويشاء الله سبحانه وتعالى أن يعد فى هذه السورة — وهى سورة الأنبياء — بتقليص ظل الماديين على هذه الأرض، وإضعاف سيطرتهم على مايسيطرون عليه بقوتهم المادية ، كما جاء فى قوله تعالى :

« **بل متعنا هؤلاء ، وآباءهم ، حتى طال عليهم العمر** (أى فظنوا أنهم لا يغلبون أبداً) .

أفلا يرون : أنا نأتى الأرض (وهى أرض الكفار) **ننقصها من أطرافها** (أى نقلصها تدريجياً) .

أفهم الغالبون » ؟ (أى أفهم بعد ذلك هم المسيطرون ؟) الآية : ٤٤

وذلك ، تمهيداً ، ولما وعد به فى هذه السورة أيضاً من أن الأرض قبل البعث أو النشور ، سيتولى أمر السيادة عليها عباد الله المؤمنون، والصالحون فى سلوكهم : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر** (القرآن) : **أن الأرض يرثها عبادى الصالحون**» الآية : ١٠٥ . ولامعنى لوراثة عباد الله الصالحين للأرض إلا أن آخر جولات الصراع بين المادية والجاهلية من جانب ، والإسلام أو الروحية الإنسانية من جانب آخر ، ستنتهى بسيادة عباد الله الصالحين على الأرض . وآخر جولات الصراع بين الشر والخير يعقبها . لأن ابتلاء الله بالدنيا يتوقف عندما يتوقف الصراع بين الطرفين . وتنتهى بذلك الدنيا كلها .

فوعد الله جلت قدرته بتقليص نفوذ الماديين وقوتهم ، وذلك قد يكون بوقوع الحروب بين بعضهم بعضاً ، أو بفعل الكوارث الطبيعية التى تدمر ما على الأرض من إنسان أو ما يملكه الإنسان ، هو وعد لا يرد . ثم إنه من جانب آخر : لابد للماديين من أن يهدموا بعضهم ، ويضعفوا بعضهم بعضاً ، لأن المادية ترتكز على الأنانية . وتحكم الأنانية مصدر التخريب فى هذه الحياة الدنيا .



ووعد الله بأنه يورث الأرض للعباد المؤمنين لا يعطى المؤمنين الأمل فى النصر فى صراعهم ضد الوثنية والشرك فحسب ، وضد المادية والجاهلية فقط . وإنما يعطيهم الدافع على الصبر على الأزمات والشدائد مع هؤلاء الماديين والجاهليين ، والصبر على تمسكهم بدين الله والإيمان به فى وقت تحكم فيه المادية قبضتها على تفكير الإنسان ، وسلوكه ، ووجدانه :

لقد ظن بعض الناس أن الصراع بين الشر والخير ، أو بين الكفر والإيمان ، والباطل والحق ينتهى فقط بالحشر والبعث ، دون أن يكون لكل طرف من هذين الطرفين نصر مبين على الطرف الآخر . ولكن وعد الله هنا يوضح : أن أصحاب دين الله هم أصحاب الكفة الراجحة فى هذا الصراع .

وربما لوعد الله بنصر المؤمنين هنا وسيادتهم فى الدنيا قبل البعث مباشرة ، يعتقد البعض « بالمهدى المنتظر » ولكن كما يتجلى من وعد الله هنا ليس الأمر أمر فرد . وإنما هو ظاهرة اجتماعية ينتهى إليها المجتمع البشرى فى صراع الإنسان مع نفسه ، بين قوتى الشر والخير فيه .

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)

تفتتح السورة آياتها . بإعلان وقوع « البعث » واقتراب موعده فى قول الله تعالى : « اقترب للناس حسابهم ، وهم فى غفلة معرضون » (والبعث فى اعتقاد الوثنيين الماديين : القضية الرئيسية فى الإنكار ، بعد الكفر بوحدة الألوهية . والآية إذ تعلن هنا اقتراب وقوع الحساب لهؤلاء الناس المكيين توضح أن إنكار البعث منهم لا يعود إلى عدم وقوعه فى ذاته ، وإنما إلى الغفلة التى تلازم هؤلاء . وإذن فإعراضهم عن الإيمان به بسبب غفلتهم عنه وتجاهلهم له وليس لعدم تحقق وقوعه) « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » (ولذا فكل ما يأتيهم من الوحى بشأنه مجدداً لا يصغون إليه . وإذا استمعوا إليه فاستماعهم هو استماع اللاعب المستخف ، الذى لا يعنيه من الأمر إلا تمرير الوقت فى غير جدية . وإثارة هذه المسألة فى بداية السورة هنا تضم إلى القضايا التى يعالجها الوحى المكى فى السورة : قضية البعث ، مع المسائل الأخرى التى نوهت بها مقدمة التفسير) « لاهية

قلوبهم » (وعدم جدية هؤلاء فى الإصغاء إلى ما يأتى مجدداً من وحى بشأن وقوع « البعث » : يرجع إلى انصراف قلوبهم وانشغالها بالمعتقدات السابقة التى تأصلت فى نفوسهم بفعل الوقوع تحت تأثير الجاهلية ، التى تحملهم على أن ينادوا فى الاعتقاد بمرحلة واحدة للحياة ، وهى مرحلة الدنيا وحدها : « **وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** » (١) « وأسروا النجوى الذين ظلموا : هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ، وهو السميع العليم » (وإذا كانت قلوبهم لاهية ومشغولة بما يصرفها عن الإصغاء إلى وقوع « البعث » فى وحى الله لرسوله عليه الصلاة والسلام . فإن حديثهم فى السر بين بعضهم بعضاً يركز على إنكار : أن يكون محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، رسولاً من عند الله . لأنه من البشر ، وليس من الملائكة وهم بهذا الادعاء يظلمون أنفسهم ، إذ يحولون بينها وبين الاعتقاد الصحيح . كما يتناول حديثهم السرى : إنكار حضورهم لما يتلى من القرآن ، وهم على ما هم عليه من علم بأنه سحر خـــادع . وهكذا يتناول حديثهم السرى فيما بينهم : بشرية الرسول ، ووصف القرآن بالسحر). « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية ، كما أرسل الأولون ! » (بينما يعلنون فى أقوالهم أوصافاً أخرى للقرآن لا تقل بطلاناً عما وصفوه به من السحر . فيقولون : إنه أخلاط من الأحلام وجملة من الأوهام ضمت إلى بعضها بعضاً .. أو أنه أكاذيب ملفقة .. وأن محمداً شاعر وقرآنه شعر يبعد عن الحقيقة بقدر ما يقترب من الخيال . والأمارة التى يمكن أن يقبلوها منه كدليل على صدقه فى الرسالة : أن يأتيهم بمعجزة بادية محسوسة ، على نحو ما جاء بها موسى لفرعون وملئه ؛ وعلى نحو ما جاء بها عيسى لبنى إسرائيل وغير هذين من الرسل السابقين) . « ما آمنت قبلهم من قرية ، أهلكناها ، أفهم يؤمنون ؟ » (ولكن أكان عدم وجود الدليل المادى على صدق الرسول

---

(١) الأنعـام : ٢٩ .

هو السبب حقيقة فى عدم الإيمان برسالته ، أم أن عدم الزعامة والمصالح الشخصية من أولئكم المستكبرين فى المجتمع والمتحدين لقبول أى تحول فى العادات والتقاليد فيه ؟ إن هناك مجتمعات سابقة على مجتمع المشركين بمكة، أهلكها بالله وقوض عروش زعمائها بسبب عدم إيمانها ، رغم وجود المعجزات المادية على صدق الرسل التى أرسلت إليها.فهل المكيون الماديون على استعداد لقبول الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، إن جاء هذا — عدا القرآن — دليل مادى على صدق رسالته ؟ إنهم سوف لا يؤمنون أيضاً) .

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

وتأخذ السورة فى الرد على أن بشرية الرسول تحول دون التصديق برسالته : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى اليهم » (فليس هناك رسول أرسل إلى قومه قبل رسالة محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام إلا كان من البشر يختار من الله ويوحى إليه بالرسالة) « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » (وإن كانوا فى حاجة إلى تأكيد هذه الحقيقة فليتوجهوا بسؤال أهل الذكر بينهم ، وهم أهل الكتاب ، عنها . فهى حقيقة تاريخية لامناص من الاعتراف بها) . « وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، وما كانوا خالدين » (وفى الوقت الذى كان المكيون يرفضون فيه التصديق برسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام لأنه بشر، كانوا يأخذون عليه أنه يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق : « **وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق** »(١) . فترد الآية فى السورة هنا على مأخذهم هذا : بأن من

---

(١) الفرقان : ٧ .

لوزام البشرية ثلاثة أمور . الأمر الأول : أكل الطعام . والأمر الثانى : الحركة والمشى . والأمر الثالث : عدم الخلود فى الحياة على هذه الأرض . فكون الرسول بشراً إذن لايعيبه ولاينقصه : أن يأكل ، ويمشى ، وأن يموت . وتنقيصه بذلك إنما يكون عن هوى لمصلحة شخصية) . « ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين » (وبجانب الحقيقة التاريخية السابقة وهى أن الرسل قبل الرسول عليه السلام كانوا بشراً ، هناك حقيقة تاريخية أخرى بجانبها . وهى أن الله سبحانه إذ وعدهم بالنصر على أعدائهم وفى تحديهم للمعارضين الماديين ، كان صادقاً فى وعده . فبينما أنجى الرسل جميعاً ومن شاء معهم من المؤمنين بهم ، وأفنى الكافرين المعارضين . فالرسول سينصره الله على أعدائه هؤلاء الذين يرفضون التصديق برسالته ، بحجة أنه بشر وليس بملك وسينكشف أمر حجتهم عندما يتضح : أن الحرص على زعامتهم هو العامل الحقيقى فى تحديهم ومعارضتهم) . « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ، أفلا تعقلون » ؟ (وفى رد السورة على ادعاءاتهم الأخرى العاطلة التى من شأنها أن تبعد القرآن عن أن يكون وحياً من عند الله تقول الآية : أن الذى جاءكم هو كتاب من الله — هو القرآن — وهو كتاب يتضمن الوصايا والتوجيه لكم أنتم ، كالتوراة فيما سبق والإنجيل فيما سبق ، فى كل منهما ذكر بنى إسرائيل . أفمن العقل والحكمة : أن يكون القرآن سحراً ينطوى على خداع ، أو أضغاث أحلام ، أو شعراً يعبر عن الخيال أكثر مما يعبر عن الواقع ؟ إن التوجيه السليم لايكون إلا من واقع ؛ وإلا عن علم دقيق محيط ، يتصل بالطبائع وخصائصها : والقرآن كتاب توجيه وهداية . ومن ثم هو بعيد عن كل مايضل الإنسان أو يوقعه فى الحيرة) .

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ (١١) فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ (١٣) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ (١٥) وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)

والتاريخ فيه كثير من الأمثلة التى ترى فعل الله بالمجتمعات البشرية التى عارضت رسلها وتحدت رسالة الرسول فيها . « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ، وأنشأنا بعدها قوماً آخرين » (فهى مجتمعات عديدة أهلكها الله وأبادها ، وأنشأ بعد إبادتها وهلاكها مجتمعات أخرى تؤمن بالله وحده . وإهلاك الله لتلك المجتمعات كان بمثابة الكسر لشىء صلب لا يعود أبداً إلى ما كان عليه . ولم يكن هناك من سبب لفعل الله بها إلا أنها ظلمت نفسها فبغت بمالها وبقوتها ، وتعدى بغيها الضعفاء فيها . وكان بغيها يتمثل فى الكفر برسالة الرسول من جانب ، وانغماسها فى الترف والملذات من جانب آخر . والقوم الآخرون ، أو المجتمعات الأخرى التى أتى الله بها بديلا عن هذه المجتمعات الظالمة لم تكن سوى الضعفاء فيها من غير أصحاب الزعامات فمكنهم الله بعد أن أزال طغيان الطاغين من أصحاب هذه الزعامات . وبذلك يصبح الضعفاء غير المترفين ممن يؤمنون بالله وبرسالته : هم الخلفاء فى توجيه المجتمع . وليس المراد بالضعفاء : المحرومون أو الفقراء غير المترفين فى

لمجتمع ، على الإطلاق. وإنما هم الملتزمون باتباع هداية الله والمؤمنون بدين الله . أما الذين يحرضون اليوم على سفك الدماء ممن يسمون « كادحين » والذين يسلكون سبيل اللاأخلاقية ، ويؤمنون بالإلحاد ، فأولئكم بعيدون عن رضا الله ، ومن ثم بعيدون أن يكونوا خلفاء الله فى الأرض . فحكمهم إن حكموا : اغتصاب . ووصولهم إلى القوة المادية لايمكنهم من الحكم إلا إلى حين) . « فلما أحسوا بأسنا إذاهم منها يركضون » وهؤلاء الزعماء الذين تمكن منهم البغى والطغيان قد يحاولون — بادعاءات إصلاحية — أن يهربوا من بغيهم وطغيانهم ، إن هم أحسوا بقرب نهاية مجتمعهم) . « لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ، ومساكنكم ، لعلكم تسئلون » (ولكن محاولة هربهم من البغى والطغيان باسم هذه الادعاءات لايفيدهم شيئاً فى تغيير مصائر مجتمعاتهم . لأنها عادة محاولة غير جادة . وأولى لهم أن يعودوا على المكشوف إلى ممارسة ترفهم ، وإلى شغل أوضاعهم السابقة ، وإلى أن يبقوا حاكمين يتجه إليهم الضعفاء بطلب الرعاية أو الحماية .. أولى لهم ذلك من محاولة تحول لايجديهم نفعاً ولا يعود على الضعفاء معهم بخير .. أولى لهم أن يسقطوا وتقوض زعامتهم وهم واضحون فى بغيهم وطغيانهم، بدلا من ممارسة نفاق مكشوف يضرهم ويضر غيرهم معاً . لأنهم سيظلون طغاة تحت شعارات خادعة . وما أخطر الطغيان إذا تستر وراء شعارالرحمة بالضعفاء ، أو اتخذ من شعار « الاصلاح » ظلا له) . « قالوا : ياويلنا إنا كنا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين» (وسيظل هؤلاء الزعماء الطغاة ، تمويهاً على الناس ، يرددون شعارات الرحمة والإصلاح وغيرها — وهم يمارسون الطغيان فى الواقع — حتى يفاجأون بتقويض زعامتهم ويصبحون لاحول لهم ولا قوة ، ولاحياة ولاحركة. لأن الله لايهمل ولا يمهل أيضاً الطغاة فى قيادتهم للمجتمعات البشرية . قد يمهل الأفراد بعيدين عن الزعامات ، ويؤخر عقابهم ليوم الحساب . ولكن الزعامات ، الطاغية فى المجتمعات لايترك طغيانها تذل الأفراد فيها ، وتنتهك حرمات الضعفاء بينهم).

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين » (إن ما يفعله الله سبحانه فى إرسال رسول إلى قومه على نمط ما يفعله فى الوجود كله . فخلقه للسماء والأرض ، وما بين السماء والأرض ، لم يكن لعباً . وإنما هو أمر جاد قصد به مصلحة العباد فى حياتهم ومعايشهم : فى نومهم وسكنهم ،وسعيهم فى سبيل الرزق ، وفى بقاء نوعهم ، وفى قدرتهم على مواجهة الصعاب والأزمات) . « لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ، إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » (وكذلك إرسال الرسول قصد به مواجهة الحق للباطل وقضاؤه عليه. فهدف الرسالة الإلهية هدف جاد هو مصارعة الباطل حتى يضعف أو يزول..هو إلقاء الحق فى قوته على الباطل فى ضعفه ، فلا تقوم له قائمة. ولو أن مايفعله الله يفعله للتلهى لاكتفى بأن يكون فى محيطه هو ، ولا شأن له بالناس من مخلوقاته . سبحانه وتعالى جل جلاله .خلق الوجود كله ليكون دليلا على وحدته فى الألوهية .ولذلك وضع الناس أمام أسرار هذا الكون لينفذوا منها إلى الإقرار باستحقاقه الربوبية وحده . ولو كان الوجود خلق للهو لما كانت له أسرار ، وبالتالى ما كان منفذاً إلى ربوبية الخالق) « ولكم الويل مما تصفون » (وإذا كان خلق الله للوجود كله ، وإرساله الرسل إلى أقوامهم لم يكن للهو واللعب وإنما كان لمصلحة الناس فى معايشهم وفى هدايتهم . فهؤلاء الزعماء الوثنيون الماديون بوصفهم القرآن بأنه سحر ، أو أكاذيب ملفقة ، أو أخلاط من الأحلام والأوهام ، أو شعر ، وبوصفهم الرسول عليه السلام بأنه شاعر ، أو كاذب .. وغير ذلك من الأباطيل ، يستحقون العقاب ولهم الويل والعذاب الأبدى بسبب أقوالهم وأوصافهم هذه ،وبسبب كفرهم وعنادهم فى الكفر ، برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام) « وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ، ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار ، لايفترون » (والذين يعيشون فى السموات من الملائكة أويعيشون على الأرض من الناس ، هم جميعاً عباد الله ، وقد استقر وضع الملائكة فى أمر عبادتهم لله فهم لايستكبرون عن عبادته ، ولا يتعبون فى طاعته . هم ينزهون الله فى عليائه ، فى كل وقت : بالليل ، وبالنهار . ولا ينقطعون عن

تنزيهه والثناء عليه . وقد استقر لهم هذا الوضع منذ أن طلب الله منهم السجود لآدم فسجدوا جميعاً له إلا إبليس . أما الناس فهم فى دوامة الصراع بين الشر والخير .. بين هداهم وهداية الله . ولذا فمنهم الكافر والمؤمن، والمتحدى والمطيع . وهؤلاء المشركون المكيون باتباعهم الهوى آثروا أن يكونوا كافرين وأن يصفوا القرآن على نحو ما سجلته السورة عليهم) .

***

أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ (٢٣) أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ (٢٨) * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَـٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢٩)

وتعرض السورة الآن لوحدة الألوهية، وتفند اعتقاد المشركين الوثنيين فى اتخاذهم آلهة سوى الله . وتسلك فى هذا التفنيد عدة سبل : السبيل الأول أنهم اتخذوا من الأصنام الأرضية آلهة لاتستطيع أن تحيي الموتى : « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون » (والمعبود كى يكون إلهاً يجب أن تكون لديه القدرة على إحياء الموتى على الأقل ، إن لم يكن على

الخلق) . السبيل الثانى : أن تعدد الآلهة فى الوجود يؤدى إلى فساد الكون كله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (فالتعدد يفضى حتما إلى النزاع والشقاق . ونظام الكون على ماهو عليه الآن من انسجام ووفاق يمنع أن يكون وراءه انشقاق بحال . وبالتالى يمنع أن يكون وراءه عددمن الآلهة . فنظام الكون وهو أمر واقع دليل على الوحدة فى الألوهية) « فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لايسئل عما يفعل وهم يسئلون » (والله إذن هو وحده رب العرش ومالك الكون، ويتنزه تماماً عنمايدعيه هؤلاء المشركون من شركاء له فى الوجود) . السبيل الثالث : أن ما جاء فى القرآن ، وجاء قبل ذلك فى التوراة والإنجيل ، من وحى بشأنالألوهية يوضح أن الرسالة الإلهية هى رسالة الوحدة . وليس هناك رسول أرسل إلى قومه إلا بدعوته إياهم إلى عبادة الله وحده : « أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى ، وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك منرسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (أى على هؤلاء الذين يدعون الشرك فى الألوهية إن تجاوزوا الواقع أن يأتوا بدليل من الكتب السماوية الثلاثة الموجودة الآن ، وهى القرآن ، والتوراة ، والإنجيل ، إن كانوا جادين فيما يدعونه. ولكن أكثرهم لايعلمون الحق فيها . فادعاؤهم الشرك نتيجة إعراضهم عن الإيمان ، للحرص على زعامتهم ، وليس نتيجة لقصور الدليل الذى فتشوا عنه وبحثوا عنه فيما بين أيديهم من كتب سماوية ، ولم يجدوه . إذ كل رسالة إلهية قبل رسالة المصطفى عليه السلام كانت تدعو إلى عبادة الله وحده . وإذن فاعتقادهم فى شركاء لله لايؤيده الواقع .سواء فى جانب ما اعتقدوه ، أو فى الكون عامة . فما اعتقدوا فيه أنه شريك لله لاقدرة له على شىء مطلقاً ، وبالأخص الإحياء والإماتة . والكون كله بنظامه يأبى أن يكون هناك تعدد فى الألوهية .كذلك لا يؤيد اعتقادهم فى الشرك أى نص فى كتاب منالكتب السماوية الثلاثة .فالواقع والنص معاً ضد ما يعتقدون) . « وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه،

بل عباد مكرمون . لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون. ومن يقل منهم إنى إله من دونه ، فذلك نجزى جهنم ، كذلك نجزى الظالمين » (واعتقادهم فى باطل وهو الشرك ، يحملهم على تصور باطل مثله . فهم يتصورون الملائكة بنات الله . فهى أولاده وبالتالى شركاء له . ويقولون من أجل ذلك : إن الله اتخذ ولداً له . وهو قول باطل . لأنهم عباد لله : كرمهم الله بعد أن أطاعوه جميعاً فى السجود لآدم . وحياتهم هى حياة الطاعة التامة له : يتبعون قوله ولا يسبقونه بالقول إطلاقاً ، ويعملون بأمره . وهو يعلم كل شىء عنهم ، ولايتقدمون بشفاعة إلا بإذنه ، ولمن رضيه هو جل جلاله . ودائماً يعيشون فى خشية منه . ولا يتصور إطلاقاً أن يأتى ملك منهم فيدعى أنه إله من دون الله. لأنهم جميعاً خلقوا فى طاعته ولا ينتظر من أحد منهم أن يخرج عن هذه الطاعة ، بعد أن عصى إبليس ربه ، وانتهى أمره مع المولى سبحانه. وليس هناك عند الله لمن يشذ عن طريق الهداية — من الناس والملائكة على السواء — إلا أن يجزيه جزاء الظالمين وهو جزاء جهنم وظالم لنفسه من يدعى الألوهية من دون الله ، من الناس أو الملائكة تنزه الله — جلت قدرته — عن أن يكون له ولد ، أو شريك فى الملك) .

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

وتعود الصورة فتوضح : كيف أنه لو كان فى السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا . وذلك يشرح نظام الكون وارتباط أجزائه بعضها ببعض،

بحيث يعبر عن تنسيق كامل فيما بينها لمصلحة الإنسان على هذه الأرض :
« أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون» (إن هؤلاء المشركين الوثنيين يجب أن يعلموا أن الله فى نظام هذا الكون عزل السماء عن الأرض ، بعد أن كانتا متصلتين بعضهما ببعض ، وأن الأحياء جميعها مخلوقة من ذلك الماء المهين . وأن هذا وذاك كان يجب أن يلفت نظر هؤلاء المشركين حتى يؤمنوا بالله وحده) . « وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون » (ويجب أن يعلموا أيضاً أنه سبحانه حال دون أن تضطرب الأرض بمن عليها فجعل فيها جبالا ثابتة لوزنها واستقرارها كما حال دون حيرة الناس فيها فجعل فيها طرقاً مسلوكة . وهذا وذاك كان يجب أن يهدى هؤلاء المشركين إلى معرفة الحق والوقوف عنده وحده ، وهو الله فى عظمته وجلاله) . « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ، وهم عن آياتها معرضون » (وكما أن المشركين لم يروا فى خلق السموات والأرض ، وخلق عالم الأحياء من الماء المهين ، واستقرار الأرض وعدم اضطرابها ، وطرقها المسلوكة ، ما يوصلهم إلى عبادة الله وحده . لأنهم أعرضوا عن ذلك كله فى اعتقادهم فى الشرك والوثنية . كذلك هم معرضون عن السماء وما فيها من آيات دالة على خالق الكون وحده فالسماء بكواكبها العديدة تؤلف سقفاً محفوظاً من السقوط حتى يوم البعث . وهذا من شأنه أن يهدى الناظر المتأمل إلى هذه الحقيقة الخالدة وهو الله وحده) . « وهو الذى خلق الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون » (والسماء ليست سقفاً محفوظاً من السقوط فقط . وإنما بها أفلاك ومدارات فيها فلك الشمس ، وفلك القمر . وكل من الكوكبين يدور فى مداره بانتظام . وعن العلاقة بين الشمس والقمر كان الليل والنهار ، واختلاف كل منهما عن الآخر . فصنع الله فى أرضه بالجبال الراسيات فيها ، والطرق المختلفة فى جبالها ، وسهولها ، وبحارها ، وفى خلق عالمها المتنوع من الأحياء .. وصنع الله فى سمائها ومدارات أفلاكها ، ونظام شمسها وقمرها ،

واختلاف الليل والنهار على الأرض تبعاً لهذا النظام ، يرشد من غير شك إلى وحدة الخالق والمعبود) .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

وإذا كانت السورة قد ردت فيما مضى — فى قوله تعالى: «**وماجعلناهم جسداً لا يأ كلون الطعام وما كانوا خالدين**»(١) — على تصور المشركين فى أن الرسول لله لا ينبغى له أن يكون بشراً ، لأنه يأكل كما يأ كل الناس ويمشى كما يمشى الناس فى الأسواق ، ولأنه غير خالد فى حياته ، فهى تعرض هنا مرة أخرى فى قوله تعالى . « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت » (وتقرر كمبدأ عام . أن البشر جميعاً ليس بينهم خالد . وإنما كل نفس لابد أن يدركها الموت حتماً . وأنت أيها الرسول إذا أدركك الموت لا يبقى واحد منهم بعدك حياً، تطبيقاً لهذا المبدأ : والماضى كله يدل على أن الخلد ليس من صفات البشر)

---

(١) الأنبيــاء : ٨ .

ربحوىم بالشر والخير فتنة » (وهناك مبدأ آخر . وهو أن ابتلاء الله للناس واختبارهم فى طاعته أو فى معصيته يكون بالنعمة والخير كما يكون بالفقر والشر ، فليس الغنى وحده هو المختبر بغناه : أيسير فى إنمائه وفى إنفاقه حسبما يريد الله للمال أن يكون ؟ ولكن الفقير والمحروم أيضاً مختبر من الله . أيصبر على فقره وحرمانه حتى ييسره الله عليه ، أم يخرج عن طاعة الله فيما ابتلاه به ؟) « وإلينا ترجعون » (والمبدأ الذى يلى ذلك أو الحقيقة التى لا تنكر بعد ذلك هى : أن جميع الناس عائدون إلى الله يوم البعث) . « وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم ؟ وهم بذكر الرحمن هم كافرون » (ولا تحفل أيها الرسول — صلوات الله عليك — بعد ذلك ، بما تتعرض له أنت من سخرية هؤلاء بك ، عندما يرونك ، أو عندما يتناقلون فيما بينهم الحديث عن تحقيرك لآلهتهم . فهم يكفرون بالقرآن . وكفرهم بالقرآن أكثر شناعة من استهزائهم بك . ومع ذلك لا يجازيهم الله فور كفرهم بكتابه ، لحكمة يعلمها) « خلق الإنسان من عجل ، سأوريكم آياتى فلا تستعجلون. ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » (ولكنهم — تحدياً منهم — يطلبون أن يعجل الله بعذابهم ، إذا كان وعد الله بالعذاب لهم صادقاً . . وإنهم يتعجلون ذلك ليس للتحدى فحسب . وإنما أيضاً لأن الطبيعة البشرية تميل إلى الاندفاع والسرعة . والتأنى أو التروى يصبح عادة لها فقط بممارسة العقل والتجربة . والقرآن ينصح هؤلاء المتحدين بعدم الاندفاع فى طلب العقاب . فهو آت لهم حتماً) . « لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ، ولا عن ظهورهم ، ولا هم ينصرون . بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ، فلا يستطيعون ردها ، ولا هم ينظرون » (وسيأتيهم العذاب فجأة ، فيذهلون من هوله ، فى وقت لا يقدرون على رده ، ولا هم يرجأون فى شأنه ، إن سألوا إرجاءه . ولو علموا أن عقابهم بسبب كفرهم وهو نار جهنم ، عندما تباغت النار وجوههم وظهورهم ، وهم عاجزون عن دفعها ولا يجدون ملجأ يلجأون إليه ولا ناصراً ينصرهم ، ما تحدوا إطلاقاً باستعجالهم العذاب وما كفروا بالله أيضاً) « ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق

بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » (هذا عقابهم على كفرهم بالله . أما عقابهم على السخرية منك يا رسول الله ، عليك صلواته، فسيتم أيضاً . لأنه ما استهزىء برسول قبلك إطلاقاً ، إلا وحل بمن استهزأ به جزاء استهزائه ، على قدر ما استهزأ) .

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَٰزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

وهؤلاء الكافرون المتحدون إذا حق عليهم عذاب الله ليس هناك فى الوجود من يحول بينهم وبين وقوع العذاب عليهم . « قل : من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ؟ بل هم عن ذكر ربهم معرضون » (فليس هناك من يحفظهم فى أى وقت من الليل والنهار من أن يصل إليهم عقاب الله . وهم يعلمون ذلك .. ومع هذا فهم معرضون عن القرآن وما جاء فيه من هداية) . « أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا » (إنهم لا يتصورون فى تلك الأصنام التى يعبدونها من دون الله أنها تستطيع أن تحميهم من عقاب الله) « لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا هم منا يصبحون » (لأنها لا تستطيع حماية ذواتها من أى ضرر يوجه إليها . فكيف يمكن أن تحمى من يعبدها عن جهالة واستكبار فى الأرض ؟ ولأنها أيضاً بعيدة كل البعد عن مساعدة

الله لها) . « بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر »
(والسبب فى تحدى هؤلاء الكافرين ، وفى عبادتهم أصناماً عاجزة
لا تتحرك ولا تضر ولا تنفع ، وفى إعراضهم عن ذكر الله وقرآنه هو
أن الله أطال عليهم نعمته فى الثراء والرفاهية . وفى هذه النعمة عاشوا
وآباءهم سنين عديدة . وبذلك نسوا : أن الله جلت قدرته يمكن أن
يغيرا وضعهم فاستمرأوا العناد والمعارضة ، واعتقدوا أنهم على حق
فيما يؤمنون ويعبدون) « أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها،
أفهم الغالبون ؟ » (ولكن يجب أن يعلموا من حيث المبدأ . أن
الله قد وعد بأن يرث الأرض وما عليها عبادة المؤمنون . وهو وعد
لا يتخلف إطلاقاً . وأنه ، تحقيقاً لهذا الوعد سيقلص أرض الكافرين
والطغاة المستكبرين من الملاحدة والماديين بالتدريج ، إلى أن يتم
استيلاء عباد الله المؤمنين عليها . وعند ذلك يأتى البعث ويأتى اليوم
الآخر . فهل مع زوال سلطان الماديين الوثنيين رويداً رويداً ، من
على هذه الأرض ، يعتقد هؤلاء المشركون المكيون . أنهم وأمثالهم هم
الغالبون وأصحاب السيادة ؟ إن هذا الاعتقاد سيتحول إلى وهم لديهم).
« قل : إنما أنذركم بالوحى ، ولا يسمع الصم الدعاء ، إذا ما ينذرون»
(وأنت أيها الرسول صلوات الله عليك : استمر فى دعوتك لدين الله،
وأنذرهم بما جاء إليك من وحى الله ، من الوعد والوعيد معاً ، وإن
كانت دعوتك لهم سوف لا تلقى صدى . لأن من عندهم صمم لا يسمعون
الدعوة ممن ينذرهم ويحذرهم من عاقبة أمرهم . وهؤلاء المشركون
المكيون بمعارضتهم للقرآن وتحديهم لرسالة الرسول عليه السلام أشبه
بمن عنده صمم ، يحول دون سماعه ما يقال له) . « ولئن مستهم نفحة
من عذاب ربك ليقولن : يا ويلنا إنا كنا ظالمين »(وسوف لا يتحملون
ما يصيبهم من عذاب الله . فعند ما تلحقهم هبة منه يطلبون — من
هوله — الويل والهلاك التام لأنفسهم ، ويقرون بأنهم كانوا ظالمين
لأنفسهم وللآخرين معهم) .« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم

نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين»
(ومع هول عذاب الله يوم القيامة فإن أعمال الناس فى الدنيا مهما خف وزنها أو صغر ، توزن وزناً عادلا . ويكفى أنه سبحانه هو صاحب الجزاء والميزان ، والحساب) .

***

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

وتعود السورة الآن لتوضيح ما تعرضت له الرسل السابقة من عداء أقوامهم . وهو ما أجملته فى قول الله تعالى من قبل : « **ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون** »(١). فتذكر مع ذكر الرسول المصطفى عليه السلام : موسى ، وهارون ، وإبراهيم ، ولوطاً ، ونوحاً ، وداوود ، وسليمان ، وأيوب ، وعيسى ومريم . وتعقب بقول الله تعالى : « **إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون . وتقطعوا أمرهم بينهم ، كل إلينا راجعون** »(٢) .. مما يدل على أن رسالة جميع الرسل كانت واحدة ، وأن الاختلاف فيها جاء من التابعين ، وليس من ذات الرسالة أو من الرسل أنفسهم . ومما يدل كذلك على أن الرسل السابقين جميعا لاقوا من العنت والمعارضة والاستهزاء ما يلقاه الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما ينتظر أن

---

(١) الأنعـام : ١٠ .
(٢) الأنبياء : ٩٢ ، ٩٣ .

يلقاه كذلك ، إلى أن تنجح دعوته : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ، وضياء ، وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب ، وهم من الساعة مشفقون » (فتذكر أن موسى ومعه أخاه هارون أرسلا إلى بنى إسرائيل ومعهما التوراة . وهى كتاب الله يفرق بين الحق والباطل ، ويضىء الطريق للمهتدين ، ويذكر المتقين الذين يتجنبون الآثام ، والاستكبار ، والطغيان ، والفواحش ، والذين يراقبون الله جل جلاله وهم لا يرونه ، ويخشون عقابه فى غيبة منه ، كما يخافون من يوم الحساب فلا يقدمون لأنفسهم) « وهذا ذكر مبارك أنزلناه ، أفأنتم له منكرون » (وأن القرآن كذلك أنزل من عند الله ، وهو مثمر لمن يريد الهداية . ومع ذلك فأنتم أيها المشركون الماديون تنكرونه وتكفرون به).

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين » (وقبل موسى وهارون منح الله إبراهيم مستوى الرشد ، وهو مستوى الرسالة والتبليغ . وكان سبحانه يحيط علماً بإيمانه وصبره فى سبيل الدعوة) . « إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ » (وتبتدىء قصته بأنه عندما حمل الرسالة واجه أباه وقومه بإنكاره لعبادتهم الأصنام وسخريته من الاعتقاد فيها) . « قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين » . (وإزاء إنكاره لعبادتهم إياها أجابوه بأنهم ورثوا الاعتقاد بها عن آبائهم ، وأن عبادتهم إياها تقليد يجب أن يتبع) « قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » (ولكنه لم يقتنع بما ذكروه من سبب لعبادتهم الأصنام ، وسفه وضعهم ووضع آبائهم من قبل فى اعتقادهم فيها ، وذكر لهم : أن هذا الاعتقاد منهم ضلال واضح) . « قالوا : أجئتنا بالحق ، أم أنت من اللاعبين ؟ » (وردوا عليه فى حوارهم بأن طلبوا منه أن يصرح لهم : بأنه هو حقاً جاد فى نقده لعبادتهم الأوثان ، أم أن ذلك منه نوع من أنواع اللعب وعدم الجدية فى القول ؟) . « قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » (وكان جوابه أن الأوثان ليس بينها رب يعبد ، وليس هناك فى الوجود من يعبد سوى رب السموات والأرض الذى خلقهن فى إبداع ، وعلى غير نموذج قائم . وهو يعلم تمام العلم ما يقول . وأقسم لهم بالله أنه لابد أن يكيد لأصنامهم بعد أن يعودوا من عبادتها لديارهم ومجالسهم وأعمالهم) . « فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون » (وفعلا بمشيئة الله قطعها قطعاً ، ولم يبق منها قائماً إلا كبيرها . فربما يحتاجون إلى الرجوع إليه فى أمر يفصل بينهم وبين إبراهيم) . « قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ، إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون » (وتساءلوا فيما بينهم عمن فعل هذا بآلهتهم وحكموا عليه بأنه ظالم ومعتد يستحق أن يعاقب . وفى

حديث بعضهم مع بعض أشاروا إلى الفاعل وذكره بعضهم على انه إبراهيم . لأنه هو الذى كان يتحدث عن هذه الآلهة بسوء . ثم استقر رأيهم على مساءلته علناً أمام جمع حاشد من الناس) . « قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ . قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » (ووجهوا إليه السؤال عما إذا كان هو الفاعل الذى حطم آلهتهم . وكان جوابه أن وجههم إلى أن يسألوا الآلهة ذاتها إن كانت تنطق . ثم أشار إلى الفاعل على أنه الصنم الكبير الذى احتفظ به وأبقاه سليما ، عندما قطع الأصنام الأخرى . وهذا التوجيه من إبراهيم إلى قومه يضعهم فى مأزق حرج . وهو أنه كيف تعبدون موجودات لا تحمى ذواتها ، ولا تنطق ، فضلا عن أن تحمى العابدين لها) . « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون » (وهذا المأزق الحرج الذى وضعوا فيه جعلهم يعيدون التفكير ويرجعون إلى أنفسهم فى تقييم هذه الأصنام . وكانت نتيجة هذا التقييم أن اعترفوا بأنهم ظلموا أنفسهم بعبادتهم إياها ؛ لأنها لا تستحق فعلا أن تعبد) . « ثم نكسوا على رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون » (ولكن ما لبثوا أن رفضوا ما وصلوا إليه من نتيجة التقييم ، وعادوا إلى وضعهم الأول منهم . فلماذا توجهنا إلى أن نسألها هى ؟) . « قال : أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون ؟ » (عندئذ أكد لهم إبراهيم أنهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر فى الحياة . . يعبدون شيئاً لا قيمة له ثم عبر عن ألمه من أجل عبادتهم غير الله ، وعن أسفه لأنهم يتبعون ما كان عليه آباؤهم ، قبل أن يفكروا فيما يفعلون . وأدنى درجات المنطق أنهم كانوا يفكرون قبل أن يلزموا أنفسهم بما لا يليق بإنسان) . « قالوا حرقوه ، وانصروا آلهتكم ، إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » (ولم يعجبهم ما صدر عن إبراهيم . لأنه ينطوى على إهانة لهم ولآلهتهم .

وأجمعوا أمرهم على إحراقه بالنار تخلصاً منه وانتصاراً لآلهتهم . واعتقدوا أنهم بذلك يكيدون له ، انتقاماً من تهكمه بعبادتهم . ولكن مشيئة الله سبقت مكيدتهم . وهى مشيئة إنقاذه تحقيقاً لوعده لرسله بإنجائهم جميعاً من مؤامرات المعارضين لهم ، فتحولت النار الحارقة إلى أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم ، ولم يصبه منها أذى إطلاقاً . ثم حماه الله بهجرته إلى الشام مع ابن أخته لوط ، حتى يبقى فى مأمن من أعدائه . وبذلك خسر المعارضون له ما اعتقدوا أنه سيعود عليهم بالتماسك ، ويبقى لهم ما تركه الآباء والأجداد لهم) . « ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » (ولم ينج الله إبراهيم من النار ويحميه فقط بالهجرة إلى الأرض المباركة فى الشام . ولكن مَنَّ عليه باسحاق ويعقوب ؛ فضلا منه . كما مَنَّ عليهم جميعا بتكليفهم بالرسالة . وبذلك كانوا أئمة فى أجيالهم التى عاشوا فيها وأرسلوا إليها : يأتمرون بأمر الله ، ويعملون ما يوحى به الله لهم من فعل الخير ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة . وبذلك كانوا قدوة حسنة وأمثلة لعباد الله الصالحين . ومن قصة إبراهيم يعرف مدى تحمله فى سبيل الدعوة إلى الحق ووحدة الله فى ألوهيته ، ومدى تربص الوثنيين الماديين به . كما يعرف نصر الله له فى الآخر وإنجاءه من الهلاك ، وفضله عليه بالأبناء الصالحين الذين اعتبروا فى تاريخ البشرية قدوة حسنة لغيرهم) .

وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

وتشير السورة بعد قصة إبراهيم إلى قصة لوط ، عليهما السلام ، وهى قصة تعرض فيها لوط إلى سخرية قومه ، وتهديده باخراجه ونفيه بعيداً

عن قومه : « **قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين** »(١) .
ورغم ذلك شمله الله برعايته ووقاه من العقاب الذى نزل بهم بهجرته إلى أرض الله المباركة ، وهى الشام أو كنعان : « ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً » (وهى حكمة الرسالة وعلمها ، فقد اختاره الله إلى قومه فى شمال شبه الجزيرة العربية : « **وإن لوطا لمن المرسلين** »(٢) . « ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ، إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين » (وقد أنقذه الله من عقاب مجتمعهم ، بعد أن طلب منهم الابتعاد عن الشذوذ الجنسى ، والعودة إلى وضع الطبيعة البشرية فى العلاقة بين الذكور والإناث :

« **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين • إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون . وماكان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم ، إنهم أناس يتطهرون • فأنجيناه وأهله إلا امرأته ، كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطراً ، فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** »(٣) . وإنجاء لوط كان من رحمة الله وفضله عليه ، بعد أن كان الإنجاء بوجه عام وعداً من الله سبحانه قطعه على نفسه لجميع رسله) .

وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

وقبل إبراهيم كان نوح عليهما السلام . ودعا نوح ربه كما دعاه إبراهيم وموسى من قبل ، بتخليصه وإنجائه ، هو ومن آمن معه ، من قومه ومما سيحل بهم غضب الله .

---

(١) الشعراء : ١٦٧ .
(٢) الصافات : ١٣٣ .
(٣) الأعراف : ٨٠ ــ ٨٤ .

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » (١) . وقد سخروا منه كما يسخر المعارضون من رسلهم : **« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » (٢)** .

وما إن نادى ربه ودعاه لإنجائه إلا استجاب له :

« ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين » (والكرب العظيم هو ذلك الفيضان الذى أتى على كل شيء عدا نوح ومن كان معه فى الفلك المشحون . وقد استوت على جبل الجودى بعد أن ابتلعت الأرض ماءها وأقلعت السماء عن مطرها) .

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

(١) هود : ٣٦ .

(٢) هود : ٣٨ .

ومن بعد إبراهيم كان داوود ، ومن بعد داوود كان ابنه سليمان. وكلاهما لقى عنتاً من بنى إسرائيل ، وكلاهما استعان بالله على من كفر منهم .

« **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داوود ، وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون** » (١) . وكانوا لا يشاركون فى القتال فى سبيل الله :

« **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين** » (٢) . ومع ما وجدا من عنت وعصيان واعتداء ، صبرا واستمرا فى دعوتهما إلى رسالة التوحيد . وجازاهما الله على ما تحملا فى سبيل الدعوة إلى وحى الله فى كتابه الكثير من النعم مما عد معجزة لكل واحد منهما . والسورة هنا تذكر المصطفى عليه السلام بفضل الله عليهما لقاء صبرهما وتحملهما . وهى إذ تذكر فضل الله عليهما لتستخلص منه السبب فيه . وهو الصبر . توصى الرسول عليه السلام به ، وتؤكد له عدم تخلى الله عنه أسوة بما تم فعلا مع الرسل السابقين . وقد جاء طلب الصبر مقترناً بقصة داوود وسليمان فى سورة : ص . إذ يقول الله تعالى : « **اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داوود ذا الأيد ، إنه أواب** »(٣). إلى أن تقول : « **ووهبنا لداوود سليمان ، نعم العبد إنه أواب** »(٤) والسورة هنا تجمل فضل الله على داوود وسليمان للتذكير بما فصل فى آيات أخرى وفى سور أخرى فتقول : « وداوود ، وسليمان ، إذ يحكمان فى الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكماً وعلماً » (أى واذكر أيها الرسول — عليك

---

(١) المائدة : ٧٨ — ٧٩ .

(٢) البقرة : ٢٤٦ .

(٣) سورة ص : ١٧ .

(٤) سورة ص : ٣٠ .

صلوات الله ـ ما كان بشأن داوود أولا ثم ما كان بشأن سليمان بعده . . اذكر حكمهما الذى يدل على فضل الله عليهما فى الحكمة والعلم ، فيما طلب منهما أن يحكما فيه . فقد طلب إلى داوود أن يحكم فى قضية الغنم ، وهى ملك لبعض الناس ، تفرقت فى زراعة بعض آخر منهم ، وأتلفتها . وبذلك تضرر صاحب الزراعة . فقدر داوود الضرر ، وهو قيمة ما تلف من الزراعة ، ووجد أنه مساو لقيمة الغنم فحكم بالغنم لصاحب الزراعة تعويضاً له . فلما نقل هذا الحكم إلى علم سليمان وهو صغير ، حكم بأن تبقى ملكية الغنم لصاحبها ، على أن يحجزها صاحب الأرض لتدر عليه من ضرعها طوال الفترة التى يعيد فيها صاحب الغنم الزراعة لصاحب الأرض كما كانت . وعندئذ يتسلم غنمه . والحكمان اشتركا فى تقدير الضرر ، وفى وجوب تعويضه . ولكن الخلاف : هل يكون التعويض بملكية الغنم وبهذا حكم داوود ، أم يكون بمنفعة الغنم وبهذا حكم سليمان . والله سبحانه كان على علم بما حكم به داوود . وعن طريق الله وصل هذا الحكم إلى علم سليمان) « وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير ، وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » (تضاف حكمة داوود ، كما يضاف علمه ، من نعم الله عليه إلى ما حباه به هنا من معرفة تسبيح الجبال عند تسبيحه لله تعالى . فكل موجود يسبح بحمده . ولكن الناس لا يفقهون تسبيحه ، إلا من وهبه الله فهم ذلك :

« **تسبح له السموات السبع ، والأرض ، ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً** » (١) . وإلى ما حباه الله به كذلك من معرفة لغة الطير : « **ولقد آتينا داوود منا فضلا ياجبال أوبى معه** (أى استجيبى له) **والطير** (أى كذلك) . » (٢) . أما أن داوود : كيف يعرف تسبيح الجبال

---

(١) الاسراء : ٤٤ .

(٢) سبأ : ١٠ .



لله تعالى ، وكيف يعرف لغة الطير ، فهذا أمر أراده الله وحققه له « **وكنا فاعلين** » . وأما كيف كانت معرفته لذلك فهذا لم ينكشف لأحد غيره . وبجانب العلم ، والحكمة ، ومعرفة تسبيح الجبال ، ومعرفة لغة الطير ، كانت هناك حقائق عملية غير ألوان المعرفة ، وهبت لداوود أيضاً . كانت هناك صنعة الدروع من الحديد : « **وألنا له الحديد** » (١) . . وهى صنعة ضرورية للوقاية من الشدة والحرب : حرب الأعداء ، أو الحرب الأهلية فيما بين بنى إسرائيل بعضهم ضد بعض) . « **فهل أنتم شاكرون ؟** » (ومع ما وهب الله لداوود ، وهو على رأس بنى إسرائيل نبياً وملكاً ، هذه المنن ، ومن شأنها أن تنعكس إيجابياً على قيادته لهم ، واجه منهم الكفر والمعارضة لرسالة الله ، وعدم الشكر على هذه المنن) . « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ، وكنا بكل شىء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ، ويعملون عملا دون ذلك ، وكنا لهم حافظين » (واذكر أيها الرسول أيضاً — صلوات الله عليك — ما أنعم به الله على سليمان بن داوود . فوهب له تسخير الريح فى هوجها : « **غدوها شهر ، ورواحها شهر** »(٢) نحو أرض كنعان أو الشام التى بارك الله فيها . كما وضع تحت تصرفه أنواعاً من العمال المهرة (الشياطين) : « **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء ، حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد** (أى ممتثلين له) . **هذا عطاؤنا فامنن ، أو أمسك بغير حساب** » (٣) . ومع وجود الأنواع العديدة من العمال المهرة فى ملك سليمان وهذه هبة عظيمة من الله ، فإن الله حباه بطاعة هؤلاء العمال له ، وعدم خروجهم عما يأمرهم به من العمل : « **وكنا لهم حافظين** » . وبذلك استطاع سليمان أن ينشىء حضارة مادية صناعية ومعمارية فى دائرة ملكه وفى مكان العبادة المعروف بالهيكل) .

---

(١) سبأ : ١٠

(٢) سبأ : ١٢ .

(٣) سورة ص : ٣٦ — ٣٩ .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

وتأتى قصة أيوب الآن . وهو مثل للصبر والتحمل بين الأنبياء . فقد بسط الله له الدنيا من مال وولد . ثم ابتلاه بالمرض لمدة غير عادية ، وبهدم منزله وبموت أولاده على كثرتهم . ومع ذلك كان صابراً . وصبره كان مثلا للصابرين : « وأيوب إذ نادى ربه : أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا ، وذكرى للعابدين » (واذكر عليك صلوات الله لنفسك وللمؤمنين معك قصة أيوب وكيف تحمل ابتلاء الله . وهو ابتلاء شاق وطويل . فبعد فترة طويلة من مرضه اتجه إلى الله تعالى فى أن يشفيه مما فيه من بلاء لا يطاق . وليس هناك فى الوجود أرحم منه سبحانه. فاستجاب له الله ، وأمره بأن يضرب برجله الأرض ، وأن يغتسل بالماء البارد ، ويشرب منه « **اركض برجلك : هذا مغتسل بارد وشراب** » (١) فعادت صحته إليه وانكشف ما به من ألم . وبعد عودة صحته عوضه الله أولاده الكثيرين الذين يقال عنهم : إنهم ذهبوا ضحية هدم ما كان له من منازل ، وأصبحوا الآن ضعف عددهم السابق . وما فعله الله معه هو أولا رحمة به ، وثانياً ليذكر جميع العابدين له سبحانه : أن جزاء الصبر على الابتلاء لا يضيع إطلاقاً . وأنه حتما لابد أن يوافى الصابر . وذلك لأن الصبر هو العامل الحاسم فى حياة الإنسان بين الفشل والنجاح . فإذا طلب من الرسول عليه السلام والمؤمنين معه أن يصبروا على إيذاء قريش وزعمائهم من الوثنيين الماديين ، فلأن الصبر هو الذى سيقود دعوته عليه

---

(١) سورة ص : ٤٢ .

السلام إلى النجاح ، ويحول أمر الجاهلية والمادية إلى الروحية الإنسانية أو إلى الإسلام) .

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

وكذلك من قصص الأنبياء الصابرين . قصة إسماعيل وإدريس ، وذى الكفل – قيل إنه إلياس ، وقيل إنه زكريا . « وإسماعيل ، وإدريس وذا الكفل ، كل من الصابرين » (أى واذكر أيها الرسول عليك صلوات الله قصص هؤلاء الأنبياء . فقد عرفوا بالصبر فى حياتهم وفى مواقفهم . فإسماعيل قد صبر عندما أراد والده إبراهيم أن يضحى به . **« فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين »** (١) . . وصبر على المقام لا ببلد لازرع فيه ، ولاضرع ، ولا بناء . وإدريس يقال إنه كان يصبر على الدراسة . وذو الكفل يقال : إنه تكفل بصيام النهار ، وقيام الليل ، والقضاء بين الناس فى مصالحهم . دون أن يغضب) . « وأدخلناهم فى رحمتنا ، إنهم من الصالحين » (ومن أجل صبرهم – وفى مقدمة ضروب الصبر : الصبر على اتقاء المنكرات – كانوا صالحين . وجازاهم الله على صبرهم وصلاحهم بالنبوة والمكانة فى التاريخ . وذلك من فضله ورحمته) .

---

(١) الصافات : ١٠٢ .

وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾

أما قصة يونس بن متى ، هو ذو النون هنا كما تحكيه السورة ، فمجيئها ليس لضرب المثل بصبره واتخاذ الرسول له أسوة فى الصبر . وإنما لبيان أن عدم صبره فى الدعوة لرسالة الله بين قومه (فى الموصل — كما يقال) كان سبباً فى غضبه منهم وهجرته بدون أمر الله بالهجرة ، وهربه إلى السفينة المشحونة وسقوطه فى الماء بعد أن خسر القرعة على البقاء عليها ، وابتلاع الحوت له . أى أن عدم صبره أثار له مشاكل عديدة كادت تؤدى فى النهاية إلى القضاء عليه ، لولا أن اجتباه ربه وجعله من الصالحين ، وأرسله ثانية إلى مائة ألف أو يزيدون .فآمنوا فمتعهم الله إلى حين. وسورة القلم توضح هذه الغاية فى قول الله تعالى :

« فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه . فجعله من الصالحين »(١) .

بينما سورة الصافات توضح الجزء الأول من قصته فى قول الله تعالى :

« وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون . فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون. فنبذناه بالعراء وهو سقيم.

---

(١) القلم : ٤٨ — ٥٠ .

وأنبتنا عليه شجرة من يقطين . وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعناهم إلى حين »(١) .

وسورة الأنبياء هنا تشير إشارة مختصرة إلى هذه القصة ، إذ تقول : «وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه » (واذكر أيها الرسول عليك صلوات الله وسلامه قصة ذا النون ، صاحب الحوت ، وهويونس ابن متى لتتخذ منها عبرة لك وللمؤمنين معك ولكل داعية يدعو لرسالة الله . فقد انصرف عن الدعوة وعن قومه ، بعد أن خاصمهم ونبذهم ، بسبب طول دعوته إياهم وشدة تماديهم وإصرارهم فى المعارضة . وهاجر غضباً منهم قبل أن يؤمر من ربه بالهجرة ، وظن أنه بانصرافه عن الدعوة على هذا النحو أن الله لا يجازيه . ولكنه فى هذا الظن كان واهماً ، إذ ابتدأت قدرة الله تضيق عليه الأمر ، فخسر على السفينة المشحونة حق البقاء عليها ، وسقط فى الماء والتقمه الحوت وعاش مدة طويلة فى ظلمات بطنه) « فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين » (وعندئذ أحس بالخطأ الذى باشره وعاد إلى الله وتاب إليه ، ودعاه وهو فى ظلمات كثيفة ، ظلمات داخل الحوت ، وظلمات بالماء الذى يعيش فيه الحوت : أن يكشف عنه هذا الغم ، بعد أن اعترف أنه ليس فى الوجود من يستحق العبادة سوى الله وحده) . « فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » (وقد سمع الله نداءه واستجاب إليه ، وأنجاه من الظلمات التى كان فيها ، وتاب عليه وأعاده إلى الرسالة ومباشرة الدعوة ، واستجابة الله لذى النون هنا ، لأن وعد الله بإنجاء المؤمنين وعد قائم فى كل وقت ، والرسل فى مقدمة هؤلاء المؤمنين) .

---

(١) الصافات : ١٣٩ ــ ١٤٨ .

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾

وما أنعم به الله على زكريا يعود إلى طول إقامته فى طاعة الله وامتثاله لأمره وصبره على معاملة أقربائه له: « وزكريا إذ نادى ربه: رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين » (وما طلب الولد من الله إلا خشية أن يرثه أقرباؤه وبالأخص فى الدين ، فيسيئون فى طريقه . فأقرباؤه بالنسبة إليه لايمثلون شيئاً إيجابياً فى حياته . ولذا يعلل نداءه إلى الله من أجل الولد ، بأنه لايتركه وحيداً من غير ولد . وحيطة منه فإنه يرى إن لم يستجب الله لدعائه فالله سبحانه فى تقديره خير من يبقى بعد موت من يموت فحسبه الله جلت قدرته . والآية هنا تطلب إلى الرسول عليه السلام أن يذكر أمر زكريا بالنسبة لابنه يحيى ، مقترناً بصبره فى عبادة الله وحده وفى طاعته دون ما سواه) . « فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين » (وتأتى استجابة الله فيما تفضل به على زكريا من عودة زوجته إلى الولادة ، بعد أن كانت عاقراً ، ومن إنجابها يحيى بعد هذه السن الكبيرة التى وصلا معاً إليها ، مرتبطة بمسارعتهم فى الخيرات وبسعيهم إلى إرضاء الله ، والخوف منه ، والخشية له وحده . وهذه صفات كلها تدل على البقاء فى دائرة الله وحده رغم ماقد يكون هناك من تحديات فى التزام طريق الله وحده) . « والتى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » (واذكر أيها الرسول صلوات الله عليك

كذلك هذه النعمة الكبرى التي أنعم بها الله على مريم بنت عمران وابنها عيسى المسيح ، بحيث أصبحت معجزة واضحة فى تاريخ البشرية . فقد أحصنت فرجها ضد الحلال والحرام معاً ، فهى التى تقول : « **قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا** »(١) . ومع ذلك أحيا الله فى جوفها عيسى بأمره جلت قدرته ، ويعلم الله أن عيسى إذا كان معجزة عالمية فذلك لأنه سيلتزم بخط الرسالة الإلهية فى إعلان وحدة الألوهية مهما واجهه من صعوبات ، وسيصبر على إعلانها مهما تهددت حياته « **ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين . إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون** »(٢) « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون . وتقطعوا أمرهم بينهم ، كل إلينا راجعون » (وتأتى هذه الآية للتعقيب على قصص الأنبياء والرسل جميعاً التى وردت فى هذه السورة ، كمثل على الصبر فى سبيل الدعوة للرسالة الإلهية ، وهى رسالة الحق والوحدة فى الألوهية . وتؤكد أن جميع الرسل التى وردت قصصهم من موسى إلى عيسى ابن مريم ومحمد عليهم السلام كانوا أمة واحدة فى الرسالة .. كانوا جميعاً دعاة وحدة فى الألوهية ضد الشرك والوثنية .. كانوا جميعاً دعاة إلى الإسلام . والإسلام هو الدعوة إلى مستوى الإنسانية فى الاعتقاد والسلوك . كما تذكر أن الخلاف الذى وقع بين الرسالات لم يكن خلافاً بين الرسل فى رسالتهم . وإنما وقع بين أتباعهم بعد الرسل أنفسهم : « **وتقطعوا أمرهم بينهم** » (أى اختلفوا وتفرقوا فى الأمر وهو شأن الرسل بين بعضهم بعضاً . ولكى يزيد الله فى توكيد : أن هذا التفرق لم يكن فى أصل الرسالة أنذر بالجزاء لكل مفرق عندما يجمع الناس ويعودون إليه فى الآخرة) .

---

(١) مريم : ٢٠ .

(٢) آل عمران : ٥٤ ، ٥٥ .

فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾

وهناك فى الآخرة : « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون » (أى ليس هناك نكران ولا كفر إطلاقاً لسعيه فى الحياة الدنيا ، إذا كان سعيه موجهاً نحو العمل الصالح وهو العمل المثمر لمن يعمل وللآخرين فى المجتمع ، وفى الوقت نفسه مؤمناً بوحدانية الله فى العبادة فالعمل الصالح بدون إيمان ، كالإيمان بدون عمل صالح ، كلاهما لا يغنى عند الله ولا يمنع العقاب فى الآخرة لمن عمل صالحاً ولم يؤمن ، ولمن آمن ولم يعمل صالحاً ، لأن العمل الصالح من غير إيمان قد يكون نفاقاً . وقد ينقطع . والإيمان بدون عمل صالح لا غناء ولا خير فيه . لأن ثمرة الإيمان بالله · فى أن يصل أثره إلى نفس المؤمن ، ويتجاوزها إلى الآخرين معه

فى أمته . والله سبحانه — لكى يطمئن المؤمن على جزاء إيمانه وعمله الصالح — يسجل ما للمؤمن من أعمال صالحات ، وهو جلت قدرته عليم بكنه الإيمان فى قلبه) . « وحرام على قرية أهلكناها : أنهم لا يرجعون» (والمجتمع الذى أهلكه الله بسبب المعارضة والتحدى لرسول من الرسل السابقة يمتنع قطعاً ألا يوجد فى الآخرة . بل سيوجد على وجه التأكيد ليحاسب زعماؤه والمستضعفون الذين اتبعوهم ، على وثنيتهم واستغراقهم فى حب الدنيا وحدها ، على حساب العمل الصالح للأفراد جميعاً) . « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ، ياويلنا ، قد كنا فى غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين » (ويستمر الوضع فى الهلاك حتى الأمارة الأولى للبعث . وهى فتح سد يأجوج ومأجوج وإسراع هؤلاء من كل مرتفع على الأرض ، وحتى الأمارة الثانية له كذلك وهى النفخ فى الصور . عندئذ يقترب الوعد الحق ، وعندئذ كذلك تشخص أبصار هؤلاء الكافرين ، فلا تطرف أعينهم ، من هول ما ترى الأبصار ، مقرين بأن الويل والهلاك مصيرهم ومرددين فيما بينهم : أنهم كانوا فى الدنيا فى غفلة وأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم وأتباعهم) . « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » (ويوقنون : أنهم وما كانوا يعبدون من دون الله من أصنام هى أحجار ، أو أشخاص ، أو أحزاب ودول ، أو مجتمعات سيلقون فى نار جهنم وسيردونها حتما) « لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون » (وسيعلمون آنئذ ، أن هذه الأصنام لو كانت شركاء لله حقاً ، وكانت آلهة تستحق أن تعبد منهم أو من غيرهم لما كان مصيرها نار جهنم . لكن الكل ، العابد والمعبود سيخلد فيها أبداً . مما يدل على أن هذه الأصنام فى منطق الإنسان العادى لا تستحق أن تحترم ، فتعبد ، وتقدس ولذا فالوثنيون الذين يعبدونها لا يكرمون أنفسهم بعبادتها . إذ يعبدون عاجزاً عن رقابة نفسه وعن حماية من فى محيطه . والإله هو القادر على النفع والضر ، وعلى الخلق والإيجاد ، على الوقاية والحماية ،

وعلى الرحمة والشدة) . « لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون » (وإذ يردد هؤلاء العابدون للأوثان نفسهم من الآلام وهم فى نار جهنم ، لا يسمعون كذلك فيها شيئاً ، ولا يسمع بعضهم بعضاً لشدة الهول وفظاعة العذاب) . « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون » (وفى مقابل هؤلاء عبدة الأوثان وعذابهم المقيم فى نار جهنم يأتى من سبقت له إرادة الله بالمثوبة الحسنى ، وهم المؤمنون الذين يعملون الصالحات . فهم مبعدون عن نار جهنم على وجه التأكيد) « لا يسمعون حسيسها ، وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون» (ومبعدون كذلك عن أن يسمعوا أى صوت لها مهما خفت . وفى الوقت نفسه لهم الخلود فيما اشتهت نفوسهم . فهم على النقيض إذن مما عليه عبدة الأوثان) . « لا يحزنهم الفزع الأكبر »(ولذا لا يخيفهم فى يوم القيامة ما يخشاه غيرهم من عبدة الأوثان مما يصور الفزع الأكبر لهم) « وتتلقاهم الملائكة : هذا يومكم الذى كنتم توعدون » (بل على العكس ، ترحب بهم الملائكة وتشير إليهم بأن هذا اليوم الذى يثير الفزع الأكبر لعبدة الأوثان ، هو اليوم الذى وعد به المؤمنون الصالحون . . هو يوم النعيم المقيم لهم) . « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا ، إنا كنا فاعلين» (هذا اليوم هو اليوم الذى تنتهى فيه السماء والأرض ويطوى فيه كل شىء فى الوجود ، ويعود الخلق على نحو ما بدأه الله . وعودة الخلق على نحو ما بدأه الله كان وعداً قطعه الله على نفسه . وما وعد به الله فلابد أن يقع . وذلك هو يوم البعث الذى ينكره عبدة الأوثان والماديون الذين لا يؤمنون إلا بالحياة الدنيا وحدها) « ولقد كتبنا فى الزبور ، من بعد الذكر : أن الأرض يرثها عبادى الصالحون»(وبجانب نعيم الآخرة المخصص للمؤمنين الصالحين فإن الله قد قضى — كما ذكر فى كتاب داوود ، وهو الزبور ومن بعده كتاب موسى وهو التوراة — بأن الأرض فى نهاية الأمر ، وقبل البعث ، ستكون خالصة لهؤلاء المؤمنين الصالحين .. ستكون لهم السيادة عليها دون الماديين . وبسيادة المؤمنين على الأرض ينتهى الصراع فوقها

بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والروحية والمادية.ولعل ذلك مما يقال عنه : فترة المهدى المنتظر . أى فترة الكلمة العليالدين الله وحده.وبالسيادة فى الدنيا ، والنعيم فى الآخرة بفوز المؤمنين الصالحين . وبعذاب جهنم والخلود فيه يكون مصير عبدة الأوثان الماديين) « إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين » (وما جاء فى السورة ، مما وضحته مقدمة التفسير لها ، من ادعاءات المكيين ودحض هذه الادعاءات من جانب الله سبحانه فى وحيه للرسول عليه السلام فى القرآن . لكاف فى إظهار الحق فى ذاته وماجاءت به رسالة الله للبشرية . وهو كاف فى نظر من ليس متعنتاً ، ولا حاقداً ؛ ولا معارضاً من أجل زعامة أو وضع اجتماعى خاص فى المجتمع ، يذهب منه إن آمن بالرسالة الإلهية) .

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

والآن يعود الوحى فى السورة ليؤكد ، أن رسالة المصطفى عليه السلام هى رسالة رحمة للناس جميعاً . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (فهى رسالة الهداية والفصل بين الحق والباطل . . هى رسالة المستوى الإنسانى الفاضل للبشرية) « قل إنما يوحى إلى : أنما إلهكم إله واحد » (وأول مبدأ من مبادئها هو مبدأ التوحيد فى الألوهية . مبدأ إبعاد الشرك والوثنية عن اعتقاد البشرية . إذ التوحيد والإيمان به ينطوى على كرامة الإنسان ، وحرية الإنسان ، ومساواة الإنسان للإنسان . فلا يعبد الإنسان حجراً أو صنماً أو ما هو دونه ، أو ما هو من خلقه . ولا يذل الإنسان لغير الله

الواحد ، ولا يستعبد لمخلوق إطلاقاً . ولا يعلو إنسان إنساناً آخر بعنصره أو بتميزه فى الاعتبار البشرى) « فهل أنتم مسلمون ؟ » (وإذا أعلنت أيها الرسول صلوات الله عليك مرة أخرى هذا المبدأ لقومك ، فاطلب إليهم الإيمان به ، والاستسلام للخالق وحده) . « فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء » (فإن أبوا أن يسلموا ، وأعرضوا عن ندائك وتمادوا فى معارضتك فى استهزاء وسخرية ، كما يفعلون ، فقل لهم : إنى قمت بإعلامكم الآن برسالة الله ، دون أن أفرق بين أحد منكم ، أو بين قبيلة وأخرى وبذلك أديت واجبى نحو الله ونحوكم) « وإن أدرى: أقريب ، أم بعيد ما توعدون» (ولست أعلم متى يحل وعد الله بالعذاب لكم على كفركم ، وعدم إيمانكم ، ومعارضتكم : أهو فى القريب ، أم فى المستقبل البعيد؟) . « إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون » (فالله يعلم ما يدور علناً على ألسنتكم من اتهامات وادعاءات باطلة سواء للقرآن ، أو لله جل شأنه ، أو للرسول وشخصه ، كما يعلم ما تسرونه بين أنفسكم من حقد وعداوة لفضل الله على الرسول عليه السلام بالرسالة ، ومن خوف على فقدان زعامة لكم فى المجتمع ، هى مصدر النفع والمصلحة الشخصية لزعمائكم) «وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون » (وأنت أيها الرسول — صلوات الله عليك — اتجه إلى الله سبحانه وناشده أن يظهر الحق بينك وبينهم واطلب إليه أن يعينك على أداء ما كلفت به من رسالة ، وعلى رد مفتريات هؤلاء الوثنيين وادعاءاتهم الباطلة) .

كتب للمؤلف

١ — الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى	الطبعة الثامنة
٢ — تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظرية والتطبيق	الطبعة الثانية
٣ — الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة	الطبعة الثانية
٤ — خمس رسائل للشباب المسلم المعاصر	الطبعة الثانية
٥ — الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى	الطبعة الثامنة
٦ — الفكر الإسلامى فى تطوره	الطبعة الثامنة
٧ — الإسلام فى حياة المسلم	الطبعة الخامسة
٨ — رأى الدين بين السائل والمجيب — جزآن معاً — فريدة منقحة	الطبعة الثامنة
٩ — رأى الدين بين السائل والمجيب — الجزء الثالث	الطبعة الأولى
١٠ — نحو القــــرآن	الطبعة الأولى
١١ — القرآن والمجتمع	الطبعة الأولى
١٢ — الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم	الطبعة الثانية
١٣ — من مفاهيم القرآن — فى العقيدة والسلوك	الطبعة الأولى
١٤ — منهج القرآن — فى تطوير المجتمع	الطبعة الأولى
١٥ — القرآن الكريم .. يقول	الطبعة الأولى
١٦ — المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم	الطبعة الأولى
١٧ — القرآن .. فى مواجهة المادية	الطبعة الأولى
١٨ — الإسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر	الطبعة الثامنة
١٩ — طبيعة المجتمع الأوربى وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامى	الطبعة الثانية

٢٠ ـ نظام التأمين فى هدى الإسلام وضرورة المجتمع المعاصر الطبعة الأولى
٢١ ـ الإسلام ونظم الحكم المعاصرة الطبعة الثانية
٢٢ ـ غيوم تحجب الإسلام الطبعة الأولى
٢٣ ـ الدين والحضارة الإنسانية الطبعة الأولى
٢٤ ـ عقبات فى طريق الإسلام الطبعة الأولى
٢٥ ـ الإسلام والإدارة ـ الحكومة الطبعة الأولى
٢٦ ـ الإسلام والاقتصاد الطبعة الأولى
٢٧ ـ الإسلام دعوة وليس ثورة الطبعة الأولى
٢٨ ـ الإسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة الطبعة الأولى
٢٩ ـ مستقبل الإسلام والقرن الخامس عشر الهجرى الطبعة الأولى
٣٠ ـ الإسلام والرق الطبعة الأولى
٣١ ـ مشكلات المجتمعات الإسلامية والفراغ من الإسلام الطبعة الأولى
٣٢ ـ هيمنة القرآن الطبعة الأولى
٣٣ ـ من أداء الواجبات .. تبتدىء سياسة الحكم فى الإسلام الطبعة الأولى
٣٤ ـ العلمانية ، وتطبيقها فى الإسلام .. إيمان ببعض الكتاب ..
وكفر بالبعض الآخر الطبعة الأولى

تطلب من : مكتبة وهبة : ١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة
تليفون : ٩٣٧٤٧٠

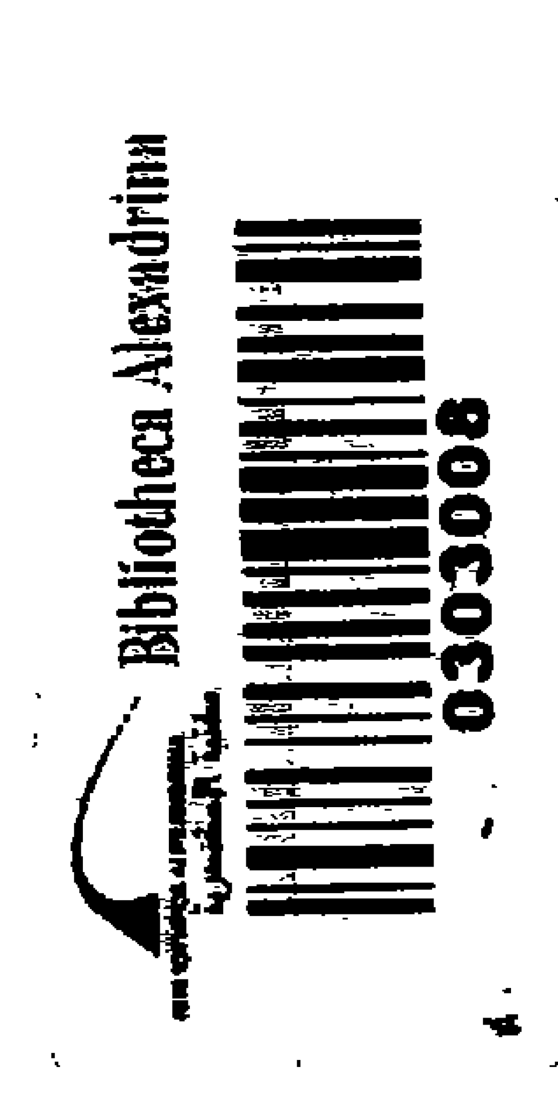
للمؤلف : فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

أولا : تفسير السور المكية :

١ ــ سورة النساء	٢ ــ سورة الأنعام
٣ ــ سورة الأعراف	٤ ــ سورة يونس
٥ ــ سورة هود	٦ ــ سورة يوسف
٧ ــ سورة الرعد	٨ ــ سورة إبراهيم
٩ ــ سورة الحجر	١٠ ــ سورة النحل
١١ ــ سورة الإسراء	١٢ ــ سورة الكهف
١٣ ــ سورة مريم	١٤ ــ سورة طه
١٥ ــ سورة الأنبياء	١٦ ــ سورة المؤمنون
١٧ ــ سورة الفرقان	١٨ ــ سورة الشعراء
١٩ ــ سورة النمل	٢٠ ــ سورة القصص
٢١ ــ سورة العنكبوت	٢٢ ــ سورة الروم
٢٣ ــ سورة الصافات	٢٤ ــ جزء عم

رقم الايداع ٧٧/٣١٧٠
الترقيم الدولى ٢ ـ ٤٩ ـ ٧٢٣٦ ـ ٧٧

دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩



دار غـريب للطبـاعة

١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)

تليفون : ٢٢٠٧٩